Journal of Fundamentals of Religion
Vol. (9) Issue (1) 2025, pp: 01-21
مجلة أصول الدين
المجلد (9) العدد (1) 2025، ص ص: 01-21

الترتيب الزمني للأنبياء في القصص القرآني

دراسة تحليلية في ضوء سياقات بعض السور

د.أحمد مفتاح امحمد ازريبيط
قسم الدعوة والإمامة والخطابة، كلية الدعوة وأصول الدين، الجامعة الأسمرية الإسلامية، ليبيا
ahmdmftah38@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/04/25 م

ملخص البحث: يتناول هذا البحث ظاهرة الترتيب الزمني للأنبياء في القصص القرآني، من خلال استقراء مواضع السور التي التزم فيها القرآن هذا الترتيب، وتحليل المواضع التي عدل فيها عنه، في محاولة للكشف عن النكات والحكم البلاغية التي تحكم نسق القصص في القرآن الكريم.

وقد بُني البحث على المنهج الاستقرائي التحليلي، حيث تتبع السور التي يظهر فيها التسلسل الزمني للأنبياء – كسورة الأعراف وهود والحج والشعراء والقمر – مبينًا كيف أن ترتيب الأنبياء في هذه المواضع لم يكن عشوائيًا، بل خاضع لمحور السورة وسياقها. كما تناول المبحث الثاني السور التي لم تراع هذا الترتيب الظاهري، مبرزًا أن العدول عنها كان لحِكم، وأن القرآن كثيرًا ما ينبه إلى هذا العدول بعبارات دالة. واعتمد البحث على أقوال كبار المفسرين كابن عاشور وسيد قطب وسعيد حوّى، وعلى جهود أصحاب موسوعة التفسير الموضوعي للسور. وخلص البحث إلى أن الترتيب الزمني في القصص القرآني ليس غائبًا ولا عشوائيًا، بل يوظّف بعناية لخدمة المقاصد العليا للقرآن، وأن ما يبدو من تقديم أو تأخير هو من دقائق الإعجاز البياني الذي يستحق مزيدًا من التأمل والدراسة.

الكلمات المفتاحية: القرآني، القصص، الأنبياء، الزمني، الترتيب

The Chronological Order of the Prophets in the Qur'anic Qasas
A Contextual Analytical Study of Selected Surahs

Dr. Ahmed Miftah Izrebet
Department of Da‘wah, Imamate, and Preaching, Faculty of Da‘wah and Fundamentals of Religion, Alasmarya Islamic University, Libya

Abstract

This study investigates the phenomenon of the chronological order of prophets in the Quranic narratives. It examines the chapters in which this order is maintained, as well as those in which the sequence diverges, aiming to uncover the rhetorical and thematic wisdom underlying the Quran’s narrative structure.

Adopting an inductive-analytical approach, the research traces key chapters—such as Al-A‘raf, Hud, Al-Hajj, Ash-Shu‘ara, and Al-Qamar—where the prophets are mentioned in historically coherent succession, showing how this order serves the

thematic unity of each surah. The second part of the study explores chapters where the chronological sequence is not observed, demonstrating that such deviations are deliberate, often highlighted through stylistic indicators, and serve deeper rhetorical or pedagogical goals.

The research draws on the insights of leading commentators such as Ibn Ashur, Sayyid Qutb, and Sa'id Hawwa, as well as contributions from the Encyclopedia of Thematic Interpretation. It concludes that the chronological pattern in Quranic stories is neither absent nor haphazard, but rather purposefully employed to support the Quran's overarching objectives, and that such narrative choices reflect a layer of rhetorical precision deserving further exploration.

Keywords: Qur'anic Qasas – Chronological Order – Qur'anic Context – Prophets

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب وجعله معجزة خالدة، ورحمةً للعالمين، فيه القصص والعبر، والحق الذي لا ريب فيه، يهدي به من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم، والصلاة والسلام على خير من بعثه الله لهداية البشرية، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن القصص القرآني ليس مجرد حكاية تاريخية، بل هو منهج تربية، وأداة بناء للوعي العقدي والتربوي، ومرآة لسنن الله في المجتمعات. وقد اعتنى القرآن بالأنبياء وأقوامهم، وسرد من قصصهم ما يحقق غاية التثبيت والتعليم والاعتبار. ومن بين الجوانب التي تستحق الوقوف عندها، قضية الترتيب الزمني للأنبياء في سياق القصص، وهل التزم بها القرآن في مواضع معينة؟ وما الحكمة حين لا يلتزم بها؟

وبالرغم من استقرار الوعي بكون القصص القرآني يحمل أهدافا تربوية وتوجيهية سامية، يدرك ذلك كل من أنصف النظر، فقد عمد بعض الباحثين من المستشرقين إلى مناقشة ترتيب الأنبياء في القرآن بانتقاد، زاعمين أن الاختلاف عن الترتيب التاريخي المعروف يعكس ضعفًا في المعرفة التاريخية. غير أن هذه الشبهة تنمّ عن جهل بجوهر القرآن وطبيعته البيانية، وتغفل عن السياقات البلاغية والموضوعية التي يقوم عليها بناء السور والآيات.

إن هذا البحث الموسوم بـ "**الترتيب الزمني للأنبياء في القصص القرآني: دراسة تحليلية في ضوء سياقات بعض السور**" جاء لتسليط الضوء على هذه الإشكالية، من خلال تحليل المواضع التي راعى فيها القرآن التسلسل التاريخي للأنبياء، وتلك التي خالف فيها الترتيب، وبيان الأسباب في ذلك، في إطار يجمع بين التفسير الموضوعي والبياني.

وقد اتبع في ذلك المنهج التحليلي باستقراء النصوص وتحليلها وفق سياقها ومحور السورة، وربط ذلك بالمقاصد وبعض النكات.

أهمية البحث:

تبرز أهمية البحث في النقاط الآتية:

- أنه يتناول جانبًا من الإعجاز البياني للقرآن الكريم، وهو الترتيب الموضوعي والزمني للقصص.
- يرد على بعض الشبهات التي تتهم القرآن بالخلل في الترتيب التاريخي.
- يسلّط الضوء على العلاقة بين ترتيب القصص ومحاور بعض السور وسياقاتها، ما يعمّق فهم بنية السورة القرآنية.
- يفتح آفاقًا جديدة في دراسة القصص القرآني بوصفه بناءً تربويًا له مقاصد لا تخضع للعرض التقليدي أو التاريخي فحسب.

أهداف البحث:

يسعى البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

1. بيان المواضع التي راعى فيها القرآن الترتيب الزمني للأنبياء.
2. إظهار النكتة البلاغية والمقاصدية وراء الالتزام أو عدم الالتزام بالتسلسل الزمني للقصص.
3. الرد على بعض أبرز الانتقادات التي وجهها المستشرقون في هذا الباب.
4. دراسة العلاقة بين ترتيب القصص ومحور السورة وسياقها في بعض السور.
5. تقديم تصور منهجي لفهم القصص القرآني بعيدًا عن الفهم التاريخي الجامد.

الدراسات السابقة:

في حدود ما اطّلعت عليه من جهود علمية، فإنّ معظم الدراسات التي تناولت القصص القرآني قد انصرفت إلى استجلاء أبعاده التربوية الدعوية، أو الوقوف على محاوره العقدية والموضوعية، أو استنباط الأحكام والمقاصد التشريعية، أو تحليل أساليبه البيانية، فجاءت تلك الجهود نافعة في بابها، معتبرة في ميدانها، إلا أنها – في الجملة – لم تُفرد موضوع الترتيب الزمني للأنبياء في سياق القصص القرآني بالدراسة المستقلة.

وقد تفرّقت في بعض التفاسير المعاصرة إشارات عابرة ولمحات نافذة إلى هذا الجانب من الترتيب الزمني للأنبياء في القصص القرآني، لا سيما في تحريرات الشيخ الطاهر ابن عاشور، وتأملات سيد قطب في الظلال، وسعيد حوّى في الأساس في التفسير ، ومحمد سيد طنطاوي في التفسير الوسيط؛ حيث يُلحَظ في هذه التفاسير وعيٌ جزئي بمراعاة السياق ومحور السورة في ترتيب القصص وسردها، وإن لم يُتناول الموضوع بوصفه قضية مستقلة بالدراسة والتحليل.

كما يجدر التنويه إلى ما قدمته موسوعة التفسير الموضوعي للسور القرآنية، التي أعدّها ثُلّة من كبار العلماء والباحثين، من جهد علمي متميز في تتبع محاور السور وربط القصص القرآني بها، مما أتاح إطارًا موضوعيًّا يُمكن أن يُبنى عليه توسعًا في هذا الباب.

غير أن تلك الإشارات – على جلالتها – لم تُنسج بعدُ في دراسة متكاملة ترصد ظاهرة الترتيب الزمني للأنبياء في القرآن الكريم في ضوء سياقاتها ومقاصدها، وهو ما يطمح هذا البحث إلى الإسهام في تأسيسه وفتح باب النظر فيه.

ومن هنا، تأتي هذه الدراسة استجابة لحاجة ملحّة في الحقل التفسيري، وسعيًا إلى سدّ هذا الفراغ العلمي، بمحاولة رسم صورة لظاهرة الترتيب الزمني في القصص القرآني، واستقراء مواضعها، وربطها بالمقاصد، بما يكشف عن دقة النظم، وجمال السبك، وحكمة العرض في كتاب الله عز وجل.

خطة البحث : يتألف هذا البحث من مقدمة ومدخل ومبحثين رئيسين:

المبحث الأول: السور التي راعت الترتيب الزمني للأنبياء

المبحث الثاني: بعض **السور التي لم تراعِ الترتيب الزمني للأنبياء**

وخاتمة.

وإني – وإن حاولتُ في هذا البحث أن أستجلي ملامح الترتيب الزمني في القصص القرآني– لا أدّعي لنفسي إحاطةً تامة، ولا رسمًا لصورةٍ مكتملة، وإنما هي نماذج منتقاة من بعض السور، قصدتُ بها فتح باب النظر، وتمهيد سبيل التأمل لمن أراد التوسّع في هذا الباب القرآني البديع، والله وليّ التوفيق والسداد.

مدخل

يشكل القصص القرآني جانبًا محوريًا في الخطاب الإلهي، إذ يهدف إلى تربية الإنسان وهدايته، متجاوزًا كونه مجرد سرد تاريخي للأحداث. رغم ذلك، تعرض هذا الجانب لانتقادات من بعض المستشرقين الذين اعتبروا عدم التزامه بالترتيب الزمني دليلًا على ضعف إدراك النبي محمد ﷺ للتاريخ.[1] لكن هذه الانتقادات تكشف عن سوء فهم لطبيعة القرآن الكريم وأهدافه السامية.

يتسم القصص القرآني بترتيب دقيق يخدم أغراضًا تربوية وبلاغية عميقة، وقد راعى القرآن في بعض المواضع الترتيب الزمني للأحداث، إلا أن هذا الترتيب قد يختلف أحيانًا تبعًا لمحور السورة أو موضوعها.

إن الترتيب في القصص القرآني ليس عشوائيًا، بل هو ترتيب واعٍ يخضع لمقاصد متعددة: تارة يراعي التسلسل التاريخي للأحداث كما في سورة يوسف، وتارة يقدّم ترتيبًا موضوعيًا يخدم محور السورة وسياقها. فحين يورد القرآن قصة داود بعد موسى عليهما السلام في قوله: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى..." ثم قوله: "وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ..."، فإنه يشير إلى تسلسل تاريخي واضح.

وكذلك في قوله تعالى: "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ

1– مثل كارل بروكلمان في كتابه تاريخ الشعوب الإسلامية، وراجع ما ذكره الباحث محمود كيشانه في كتابه القصص القرآني في مرآة الاستشراق.

بَعْدِهِ..."، ما يدل بجلاء على أن موسى وعيسى عليهما السلام جاءا بعد إبراهيم. [1] وهذه المواضع تدل على أن الترتيب الزمني حاضر في القرآن حين تدعو الحاجة إليه.

ونجد إشارات إلى تعاصر بعض الأنبياء مثل: إبراهيم مع إسماعيل وإسحاق، وموسى مع هارون، وداود مع سليمان، ويحيى مع زكريا وعيسى، عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

ومع أن القرآن الكريم ليس كتابًا تاريخيًا يُعنى برصد الوقائع وتوثيق الأزمنة إلا أنه – حين يورد القصص – يفعل ذلك بمنهج رباني بالغ الدقة والإحكام، ينبئ عن علمٍ محيط، ويكشف زيف الروايات المتضاربة عند الأمم السابقة. فهو لا يورد من الأحداث إلا ما يخدم غاياته الكبرى: الهداية، والعظة، وترسيخ السنن الكونية في الأنفس والمجتمعات، كما قال تعالى:﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [2]

وقد أشار الإمام محمد عبده إلى أن القرآن لا يلتزم في سرده أسلوب المؤرخين، ولا يورد القصة كاملة مفصلة بجميع جزئياتها، بل يكتفي منها بموضع العبرة ومحل الدرس، لأنه ليس في مقام الإخبار التاريخي، بل في مقام البيان الرباني لهداية الإنسان.[3]

وفي المعنى ذاته، يرى الدكتور أحمد أمين سليم أن مطالبة القرآن بالالتزام بمنهج المؤرخين نوع من الخطأ المنهجي، مبينًا أن كثيرًا من المؤرخين أنفسهم يختلفون في ترتيب ملوك عاشوا في نطاق جغرافي وزمني ضيق، فكيف إذا تعلق الأمر بأنبياء وأمم امتدت في أزمنة متباعدة وعصور سحيقة؟[4] ويخلص إلى أن أغلب ما كُتب عن تلك الأزمنة قائم على الظنون، بينما القرآن يعرض حقيقة التاريخ بنور الوحي، لا بظن المؤرخين.[5]

1- "قال الشيخ وليّ الدين العراقي: وقد وقع الاستدلال بالتاريخ في الكتاب العزيز في قوله تعالى: {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ} فإنّه تعالى استدلّ على بطلان دعوى اليهود والنصارى في إبراهيم بقوله: {وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ}، قال: وهذا من لطائف الاستدلال ونفائسه". مرقاة الصعود إلى سنن أبي داوود، للسيوطي :134/1.

2- من سورة يوسف، من الآية 111.

3- ينظر: تفسير المنار:287/1.

4- دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم:20.

5- يراجع في هذا الصدد كتاب : التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها، وهو من تأليف: إسرائيل فنكلشتاين ونيل آشر سيلبرمان، ترجمة: د. سعد رستم، (دار صفحات، دمشق). وقد قرر المؤلفان – وهما من كبار المختصين في علم الآثار – أن التوراة الحالية ليست نصًا موحًى بكليتها، بل كتبها الكهنة في عهد الملك يوشيا (القرن 7 ق.م)، وأُكملت في السبي البابلي، وأن كثيرًا من رواياتها دعائية وأسطورية، وأن علم الآثار الحديث لم يثبت صحة القصة التوراتية، بل نفى وقوع كثير من أحداثها. ونقل سعد رستم أن هذا الإقرار من باحثين يهوديين يضفي على نتائجهم العلمية وزنًا خاصًا لغياب شبهة التحامل. ومما يعضّد هذا المعنى أيضًا ما قرره الباحث المسيحي الفرنسي موريس بوكاي في كتابه التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، إذ أجرى مقارنة علمية بين النصوص المقدسة من منطلق حيادي متجرد، فخلص إلى أن كثيرًا مما ورد في التوراة، خصوصًا في بدايات التاريخ كخلق الإنسان

ومع ذلك، فإن من يتأمل القصص القرآني يجد أن القرآن قد راعى الترتيب الزمني للأنبياء في عدد من سوره، ورتب الوقائع والأقوام وفق تعاقبها التاريخي، لا سيما حين يكون السياق قائمًا على بيان سنن العذاب أو تسلسل النبوات. وهذا ما سيكون محل عناية في المبحث الأول من هذا البحث، حيث نتتبع السور التي راعت هذا الترتيب، ونكشف عن الحكمة البلاغية والمقصد الكامن وراءه.

المبحث الأول: السور التي راعت الترتيب التاريخي للأنبياء:

راعى القرآن المجيد الترتيب التاريخي للأنبياء مع أممهم في عدد من السور التي سيتضح أن فيها تسلسلا زمنيا يخدم غرضًا بلاغيًا وتربويًا يتماشى مع موضوع السورة ومحورها. ومن هذه السور: الأعراف، هود، الحج، الشعراء، القمر. ونفصلها فيما يأتي:

أولا: سورة الأعراف: وهي من القرآن المكي بلا خلاف [1]،ومحورها العام يدور حول الإنذار للمكذبين وتثبيت المؤمنين، افتتحت السورة بالحروف المقطعة، ثم بقول الله تعالى:﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ﴾ [2]والمتأمل في مطلعها يرى أنها تتألف من مقدمة جاء فيها الأمر باتباع القرآن والنهي عن اتباع غيره، وفيها رسمت صورة للقرى التي حل بها العذاب، ثم فصلت هذه الصورة بسلسلة من القصص بدأت بآدم، ثم نوح، فهود، فصالح، فلوط، فشعيب، ثم موسى وبني إسرائيل.

يقول البقاعي :مهدت السورة لذكر القصص إجمالا بقوله تعالى: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [3]وختم القصص فيها بقوله:﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [4]بعد تعقيب قصص بني إسرائيل بقصة بلعام:﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [5][6]

وتسلسل السلالات، يصطدم اصطدامًا مباشرًا مع معطيات العلم الحديث، وأن بعض الروايات الكبرى – كقصة الطوفان – تفتقد المنطق العلمي والتاريخي، حيث تعرضها التوراة على أنها عقوبة كونية عمت البشرية كلها، بينما يقرر القرآن الكريم أن الطوفان كان خاصًا بقوم نوح، كما في قوله تعالى:﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ [الفرقان: 37]، مما يؤكد دقة القرآن في بيان الحقائق، وتميّزه في عرض التاريخ كما وقع لا كما رُوي أو خُيِّل، بل ذكر أن القرآن يمتاز بتقديم معلومات جديدة حول فرعون ومصيره بعد الغرق في حين التوراة صامتة عن هذا الموضوع، مما يعني هيمنة القرآن على سائر الكتب.

1- قال الشيخ ابن عاشور: "وهو ظاهر رواية مجاهد وعطاء الخراساني عن ابن عباس، وكذلك نقل عن ابن الزبير، وقال قتادة آية:﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ [الأعراف: 163] نزلت بالمدينة، وقال مقاتل من قوله: :﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ – إلى قوله–﴿إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الأعراف: 172] نزلت بالمدينة". التحرير والتنوير:(6/8).

2- من سورة الأعراف، الآية 2.

3- من سورة الأعراف، الآية 7.

4- من سورة الأعراف، من الآية 176.

5- من سورة الأعراف، الآية 175.

6- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور :(7/ 352).

لقد تحدثت سورة الأعراف أولا عن سيدنا آدم عليه السلام بدءا من قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [1]

ثم ذكرت الأعراف القصة الثانية وهي نوح عليه السلام مع قومه، قال تعالى:﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [2]

قال ابن كثير: "لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة وما يتعلق بذلك وما يتصل به وفرغ منه شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام الأول فالأول فابتدأ بذكر نوح عليه السلام فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام وهو نوح بن لامك بن متوشلح بن أخنوخ –وهو إدريس النبي عليه السلام– ... ابن برد بن مهليل بن قنين بن يانش بن شيث بن آدم عليهم السلام هكذا نسبه محمد بن إسحاق وغير واحد من أئمة النسب[3]... وقد كان بين آدم إلى زمن نوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الإسلام. قاله ابن عباس وغير واحد من علماء التفسير". [4]

من خلال ماسبق يتبين أن إدريس عليه السلام كان قبل نوح عليه السلام، فلم لم يذكر هنا في هذه السورة؟ وجوابا عن هذا السؤال : أن سياق هذه السورة ذكرت الأمم التي عصت أنبياءها فتعرضت للدمار، ولم يذكر المفسرون ولا التوراة أن قوم إدريس عليه السلام تعرّضوا للدمار، لذا لم يذكر قومه هنا في سورة الأعراف. والله أعلم.

ثم ذكرت الأعراف بعد قصة نوح عليه السلام القصة الثالثة وهي قصة هود عليه السلام مع قومه، فقال تعالى:﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [5]فعطفت قصة هود على قصة نوح، وذلك بأن نقدر بعد واو العطف (أرسلنا) في هذه الآية، والتقدير وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودا [6]، فانتصاب (أخاهم) بـ(أرسلنا) أي وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحا عليه السلام كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا.

قال الشيخ ابن عاشور: "وعاد أمة عظيمة من العرب العاربة البائدة،... وهم أبناء عاد بن عوص،

1- من سورة الأعراف، الآية 11.

2- من سورة الأعراف، الآية 59.

3- وفي سفر التكوين:(05:01-25) نوح بن لامك بن متوشالخ بن أخنوخ بن يارد بن مَهْلَئيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم، والملاحظ على ابن إسحاق أنه ينقل من سفر التكوين، وما ذكره في نسب نوح يخالف نطقه ما ورد في هذا السفر.

4- تفسير القرآن العظيم :(387/3).

5- من سورة الأعراف، الآية 65.

6- وهذا من عطف الجمل فتكون الواو لمجرد الجمع اللفظي من عطف القصة على القصة، وليس من عطف المفردات، وهذا الوجه أحسن، ينظر ابن عاشور، التحرير والتنوير:200/8، والرازي، التفسير الكبير: (299/5).

وعوص هو ابن إرم بن سام بن نوح، كذا اصطلح المؤرخون".[1]

ونجد في ثنايا قصة هود هنا تحذير خاص لقومه من مصير قوم نوح فقط، مما يدل على أنه ليس بينهما نبي حيث قال هود عليه السلام لقومه:﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ [2]ودلّ نصحه لقومه على أنهم خلفاء قوم نوح، ولم يحذرهم من مصير الأمم الأخرى التي عصت أنبياءها مثل قوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب، فثبت بذلك أن عادًا هي أول أمّة بعد طوفان نوح عليه السلام [3]

ثم ذكرت الأعراف بعد قصة قوم هود عليه السلام القصة الرابعة وهي قصة صالح عليه السلام مع قومه، قال تعالى:﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [4] أي وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا، فنجد سيدنا صالح عليه السلام يحذر قومه وهم ثمود من مصير قوم عاد فقط، إذ يقول الله تعالى على لسانه:﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ ﴾. [5]

قال المفسرون: وثمود أمة كبيرة من العرب البائدة وهم أبناء ثمود بن جاثر بن إرم بن سام بن نوح فيلتقون مع عاد في (إرم) وقالوا :إن ثمود قامت بعد عاد فنمت وعظمت واتسعت حضارتها، وكانوا موحدين، ولعلهم اتعظوا بما حل بعاد، ثم طالت مدتهم ونعم عيشهم فعتوا ونسوا نعمة الله وعبدوا الأصنام فأرسل الله إليهم صالحا رسولا يدعوهم إلى التوحيد فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون، وعصاه سادتهم وكبراؤهم. [6]

ثم ذكرت الأعراف بعد قصة قوم صالح عليه السلام القصة الخامسة وهي قصة لوط عليه السلام مع قومه، قال تعالى:﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [7]

وعطف بالواو هنا على (نوحا) في قوله: (لقد أرسلنا نوحا) فالتقدير: وأرسلنا لوطا. [8]

1- التحرير والتنوير: (200/8) وينظر: البداية والنهاية، لابن كثير:(137/1). وفي سفر التكوين (21:10): أن من أولاد سام أرام ومن أولاد أرام عوص ولم يذكر من ولد عوص.

2- من سورة الأعراف، الآية69.

3- ليس المراد أنهم خلفوا قوم نوح في ديارهم؛ لأن منازل عاد غير منازل قوم نوح عند المؤرخين. ينظر ابن عاشور، التحرير والتنوير:205/2.

4- من سورة الأعراف، الآية 73.أي وأرسلنا إلى ثمودا أخاهم صالحا.

5- من سورة الأعراف، الآية 74.

6- ينظر: التحرير والتنوير:(216/8) وتفسير القرآن العظيم:(393/3).

7- من سورة الأعراف، الآية80.

8- قال البقاعي : إنّ القرآن الكريم عبّر في قصة نوح عليه السلام بـ﴿أرسلنا نوحًا إلى قومه﴾ ثم نسق من بعده عليه فقيل و﴿وإلى عادٍ أخاهم هودًا﴾، و﴿وإلى ثمود أخاهم صالحًا﴾، و﴿وإلى مدين أخاهم شعيبًا﴾.
لكنه عدل عن هذا النسق في قصة لوط عليه السلام، فلم يقل: "أرسلنا لوطًا إلى قومه"، ولا "وإلى سدوم أخاهم لوطًا"، وإنما قال: ﴿ولوطًا إذ قال لقومه﴾، وذلك لخصوصية قصة لوط وشدة شناعتها، فهي تتضمن جريمة فاحشة زائدة على الشرك بالله، مما استوجب الخروج عن نسق السرد المعتاد في القصص، تهويلًا للجرم وتبشيعًا له، وتنبيهًا على فظاعته وشذوذه عن الفطرة السليمة.

قال ابن كثير:"ولوط: هو ابن هاران بن آزر[1]، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل –عليهما السلام– وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام ، وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله عز وجل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها، لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور دون الإناث، وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده، ولا تألفه، ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل سدوم– عليهم لعائن الله–"[2]

وإذا كان سيدنا لوط عليه السلام معاصرا لسيدنا إبراهيم عليه السلام ومن المستجيبين لدعوته والتابعين له، فما نكتة طي قصة إبراهيم هاهنا ؟ يقول سيد قطب: "وتمضي عجلة التاريخ فيظلنا عهد إبراهيم– عليه السلام– ولكن السياق لا يتعرض هنا لقصة إبراهيم؛ ذلك أن السياق يتحرى مصارع المكذبين متناسقا مع ما جاء في أول السورة (وكم من قرية أهلكناها، فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون) وهذا القصص إنما هو تفصيل لهذا الإجمال في إهلاك القرى التي كذبت بالنذير، وقوم إبراهيم لم يهلكوا لأن إبراهيم عليه السلام لم يطلب من ربه هلاكهم بل اعتزلهم وما يدعون من دون الله، إنما تجئ هنا قصة قوم لوط ابن أخي إبراهيم ومعاصره بما فيها من إنذار وتكذيب وإهلاك يتمشى مع ظلال السياق على طريقة القرآن".[3]

ثم ذكرت الأعراف بعد قصة قوم لوط عليه السلام القصة السادسة وهي قصة شعيب عليه السلام مع قومه فقال تعالى:﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [4] أي وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبا. ومدين : هي أمة سميت باسم جدها مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام من زوجه الثالثة التي تزوجها في آخر عمره وهي سرية اسمها قطورا، وتزوج مدين ابنة لوط عليه السلام ... وقد أسكنهم إبراهيم عليه السلام في ديارهم، وسطاً بين مسكن ابنه إسماعيل عليه السلام ومسكن ابنه إسحاق عليه السلام ومن ذريتهم تفرعت بطون مدين، ... وقد هاجر موسى عليه السلام إليها عند فراره من مصر بعد حادث قتل أحد الأقباط، وهاجر إلى قريب منها ببني إسرائيل...وكان شعيب عليه السلام من القرية وهي (الأيكة) وقد تعربوا بمجاورة الأمم العربية وكانوا في مدة شعيب عليه السلام تحت ملوك مصر، وقد اكتسبوا العربية بمجاورة قبائل العرب ومخالطتهم لكونهم في طريق مصر، فأصبحوا في عداد العرب المستعربة، مثل بني إسماعيل عليه السلام .[5]

ويرى البقاعي أن القصد من القصة هنا يتجاوز مجرد التسلية للنبي– صلى الله عليه وسلم– أو التحذير لقريش، إلى التذكير بنعمة الله على العرب في سلامتهم من هذا الفعل القبيح، وجعل هذا الخروج عن النسق أسلوبًا بلاغيًا يُظهر بشاعة الفعل وتميّز قوم لوط به عن سائر الأمم. ينظر: نظم الدرر:(453/7).

1– وفي سفر التكوين (27:11): (ولد تارح إبرام[إي إبراهيم] وناحور وهاران، وولد هاران لوطا) وتارح هو آزر عند المفسرين المسلمين، وما ورد في سفر التكوين متفق مع ما ذكره ابن كثير.

2– تفسير القرآن العظيم:(399/3).

3– في ظلال القرآن:(1314/4).

4– من سورة الأعراف، الآية85.

5– ينظر: التحرير والتنوير:240/8.

وورود قصة شعيب عليه السلام بعد قوم لوط في هذه السورة روعي فيه أيضا الترتيب التاريخي، وهذا ما يؤكده ظاهر القرآن إلا أن بعض المفسرين اختلفوا في زمن شعيب عليه السلام هل كان معاصرا لموسى عليه السلام وقد تزوج من إحدى ابنتيه أو لم يكن معاصرا له بل أرسل قبله ؟[1] والذي يترجح أنه أرسل بعد لوط عليه السلام وقبل موسى عليه السلام بدليل سياق الآيات هنا، وذلك أن الله تعالى لما تحدث عن إهلاك قوم شعيب قال:﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [2] ويدعم هذا الدليل ما جاء على لسان سيدنا شعيب عليه السلام في سورة هود فقال:﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [3]يحذر قومه من مصير الأقوام الذين سبقوهم، فيتضح من هذا أنه أرسل بعد لوط بزمن. إذاً فاعتبار شعيب معاصرا لموسى وأبًا لزوجته[4] غير سديد بحسب ظاهر القرآن.

1- وسبب اختلافهم هو اختلاف تفسيرهم فيما أبهمه القرآن في قوله تعالى: (وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ) (سورة القصص الآية 23) القول الأول: هو شعيب عليه السلام وَهَذَا هو المشهور عند كثير من العلماء. القول الثاني: هو ابن أخي شعيب، واسمه يثرون. قال الطبري معلقا على هذين القولين: "وهذا مما لا يُدرك علمه إلا بخبر، ولا خبر بذلك تجب حجته. ". القول الثالث: لم يكن شعيبا عليه السلام لأنه كان قَبْلَ زَمَانِ مُوسَى عليه السلام بِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ، ولِأَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ (وَما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ) وَقَدْ كَانَ هَلَاكُ قَوْمِ لُوطٍ فِي زَمَنِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنَصِّ الْقُرْآنِ، وَقَدْ عُلِمَ أنه كان بين الخليل وموسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مُدَّةٌ طَوِيلَةٌ تَزِيدُ عَلَى أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ، كَمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ. وَمَا قِيلَ إِنَّ شُعَيْبًا عَاشَ مُدَّةً طَوِيلَةً، إِنَّمَا هُوَ- وَاللَّهُ أَعْلَمُ- احْتِرَازٌ مِنْ هَذَا الْإِشْكَالِ، ثُمَّ مِنَ الْمُقَوِّي لِكَوْنِهِ لَيْسَ بِشُعَيْبٍ أَنَّهُ لَوْ كَانَ إِيَّاهُ لَأَوْشَكَ أَنْ يَنُصَّ عَلَى اسْمِهِ فِي الْقُرْآنِ هَاهُنَا، وَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ مِنَ التَّصْرِيحِ بِذِكْرِهِ فِي قِصَّةِ مُوسَى لَمْ يَصِحَّ إِسْنَادُه. (يراجع : تفسير ابن كثير :205/6، وجامع البيان:(19/ 562).

2- من سورة الأعراف، الآية103.

3- من سورة هود، الآية 89.

4- وممن ذهب في عصرنا إلى هذا القول وناصره الأستاذ سليمان الندوي في كتابه (تاريخ أرض القرآن:329) والشيخ الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير (20/ 101) وذلك استنادا على قول بعض المفسرين القائل بأن يثرون وشعيبا هما اسمان لشخص واحد، وذهب كل منهما إلى أن يثرون كلمة عبرية معناها : الكاهن، لأن الكاهن يخبر عن الغيب ولأنه يطلق على القائم بأمور الدين عند اليهود. لكن رأى الندوي أنه حوباب لوروده في بعض المواضع من التوراة بهذا الاسم، ونقل ذلك عن باحث ألماني يدعى هنري تشواتد فادّعى الأخير أن حوباب تحريف لشعيب. أقول: إن من يطالع التوراة (سفر العدد :10:29) يجد أن حوباب هو ابن رعوئيل المدياني، ورعوئيل هو يثرون نفسه، مما يعني أن حوباب ابن صهر موسى عليه السلام وليس صهره، فهو ابن يثرون. (يراجع موقع الأنبا تكلا هيمانوت) أيضا لا نجد التوراة تذكر يثرون كنبي أبدا مع أنه لو كان صهرا لموسى ونبيا للزم أن تتحدث عن نبوته، ثم إن القرآن العظيم تحدث في مواضع عدة عن شعيب النبي وفي موضع واحد عن هذا الشيخ الذي كان صهرا لموسى فلم يذكر في أي موضع ولو بالإشارة أن الاثنين شخصية واحدة، أيضا لو أن شعيبا كان صهرا لموسى فلماذا لم ينذر قومه بعذاب أنزله الله قبل قليل من الزمان على أعداء موسى وهم فرعون وجنوده؟ ومما يدل على أن شعيبا ويثرون شخصيتان مختلفتان هو قول الله بعد الحديث عن هلاك قوم شعيب :(ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فظلموا بها) (الأعراف:103) فما دام القرآن العظيم صريحا في أن موسى جاء بعد هلاك قوم شعيب فلا يسوغ لنا الظن أن شعيبا أو يثرون كانا شخصية واحدة وأن قوم شعيب أهلكوا على يد موسى وأصحابه-كما ادّعى الأستاذ الندوي،وأوّلَ آيات قصة شعيب في سورة هود حتى تتسق مع صحة رأيه حيث ذكر أن التوراة وتحديدا سفر العدد ذكر أن موسى عليه السلام عند هجرته من مصر مع الإسرائيليين من مظالم الفرعونيين

وبعد أن قصت الأعراف تفصيل ما انفردت به كل أمة من العذاب والهلاك أتبع ذلك تعقيبا وإجمالاً يبين فيه أن سبب استئصال الأمم واحد، وهو التكذيب والاستكبار على الحق،[1] فقال تعالى:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ [2]

وينتهي هذا التعقيب بلفتة إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- عن هذا القصص؛ وتلخيص لأمر الأقوام التي كذبت من قبل؛ بسبب تعطل فطرتهم وغفلة قلوبهم، فقال تعالى:﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [3] والمراد بتلك القرى قرى الأقوام المتقدمة وهم قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب نقص عليك من أخبارها كيف هلكت. [4]

ثم يستأنف السياق بذكر قصة مواجهة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [5] وتختتم القصة بمصير فرعون وقومه، قال تعالى:﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [6]

ثم تذكر الأعراف قصة موسى مع بني إسرائيل وانحرافاتهم، ويمتد من قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾[7] إلى:﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [8] ثم قص عن بني إسرائيل ما فعل الله لهم وبهم، ويمتد من قوله تعالى:﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ [9] إلى:﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ

أقام في مدين أولا، ولكن نسوة المدينة حاولن سلب إيمانهم واستمالتهم إلى الشرك حيث كن يأخذنهم إلى معابدهن الوثنية وقام رجال مدين والشعوب المجاورة لمدين للقضاء على بني إسرائيل فقام موسى بشن غارة على أهل مدين وقتلهم بما فيهم النساء والأطفال. فقال الندوي : إن قوله تعالى : (ولا تعثوا في الأرض مفسدين بقية الله خير لكم)[هود:86] هو إشارة إلى تلك الغارة التي شنها موسى على مدين، فقسم جزءا من أراضي مدين بين الإسرائيليين وترك جزءا منها فقال شعيب عليه السلام ناصحا : لا فائدة من الفتنة والإفساد اقنعوا بما أبقى الله لكم، ... وأن قوله تعالى (إن أريد إلا الإصلاح) قال الندوي : فيه إشارة إلى الإصلاح بين مدين وبين بني إسرائيل. (أرض القرآن:334) وفي ظني أنه تأويل بعيد؛ لأن هذا يقودنا إلى القول بأن شعيبا لم يبعث في قومه إلا بعد هجرة موسى بالإسرائيليين إلى مدين وأن مهمته منحصرة في أن يناصح قومه بالتصالح مع المهاجرين الإسرائيليين.نعم. قد يكون يثرون من قوم شعيب عليه السلام والمتأثرين بدعوته والعاملين بتعاليمه لذا تشير التوراة أن يثرون قد أفاد موسى عليه السلام في وضع نظام اختيار القضاة لقوم موسى. والله أعلم. (ينظر:الخروج: 18:13-27).

1- ينظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: (8/ 9).

2- من سورة الأعراف، الآية 94 .

3- من سورة الأعراف، الآية101.

4- ينظر: الرازي، التفسير الكبير:324/5.

5- من سورة الأعراف، الآية103.

6- من سورة الأعراف، الآية137.

7- من سورة الأعراف، الآية138.

8- من سورة الأعراف، الآية159.

9- من سورة الأعراف، الآية160.

كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [1]

وما سردته الأعراف من قصة موسى ﷺ هنا بعد قصص الأنبياء ظاهره أن موسى جاء بعد هذه الأمم بزمن، فروعي فيها أيضا الترتيب التاريخي، بل إن تفاصيل سيرته ﷺ التي ساقها القرآن هنا روعي فيها أيضا التسلسل التاريخي مع التركيز على محور السورة، إذ لا تسرد الأعراف جميع تفاصيل حياته ﷺ بل تسرد الأحداث مرتبة مع ما يتعلق بالمحور العام للسورة.

قال محمد سيد طنطاوي: "فأما في سورة الأعراف، فكان التسلسل الزمنى مقصودا لعرض أحوال الناس منذ آدم- ﷺ -"[2]. وقال في موضع آخر :" فأنت ترى أن السورة الكريمة [أي سورة الأعراف] قد التزمت الترتيب التاريخى في حديثها عن الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام-.[3]

ثانيا: سورة هود: وهي من القرآن المكي عند أكثر المفسرين لكن يرى بعضهم أن بعضا منها مدني[4]، وهذه السورة أيضا سردت قصص الأنبياء حسب تاريخ وجودهم، ومحور هذه السورة يدور حول الحديث عن الأمم التي تعرضت للهلاك بالعذاب، بدءا من نوح -ﷺ- ، ثم تذكر قصة هود ﷺ، ثم ذكرت قصة صالح ﷺ ، ثم تحدثت عن قصة إبراهيم ﷺ حديثا تمهيديا كمدخل إلى موضوع قصة لوط ﷺ الذي أُهلك قومه بالعذاب؛ ولأن لوطا ﷺ كان من المؤمنين بإبراهيم، وقد هاجر معه إلى الشام، ولذلك قرر الله تعالى أن يخبر إبراهيم بعذاب قوم لوط لذلك نجد السورة هنا تُقدِّمه أولًا على ذكر لوط، ولأن المخبرين الذين أخبروا إبراهيم وهم ضيوفه هم أنفسهم ذهبوا للوط فتبتدئ قصة إبراهيم من الآية 69 إلى الآية 76 وقصة لوط تبتدئ من الآية 77 إلى الآية 83 وبعد قصة لوط تتحدث السورة عن قصة شعيب ثم تأتي قصة موسى ﷺ ، وبقصة موسى تنتهي قصص سورة هود ﷺ.

1- من سورة الأعراف، الآية171.

2- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، للدكتور محمد طنطاوي : 278/10.

3- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، للدكتور محمد طنطاوي : 431/5. ذكر المفسرون وجوها في تعليل ذكر هذه القصة هنا، منها: أن رسالة موسى ﷺ جاءت بأعظم شريعة بين يدي شريعة الإسلام، وأرسل رسولها هاديا وشارعا تمهيدا لشريعة تأتي لأمة أعظم منها تكون بعدها، ولأن حال المرسل إليهم أشبه بحال من أرسل إليهم محمد ﷺ . ينظر: التحرير والتنوير:(34/9) وتفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، للشيخ الهرري(45/10).

4- منها : قوله تعالى :﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ فإنها نزلت بالمدينة، وهي رواية عن ابن عباس، ، ويرى مقاتل أن السورة مكية ما عدا ثلاث آيات، هذه إحداها، والثانية : قوله تعالى ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ والثالثة: قوله تعالى:﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾ .ينظر: المحرر الوجيز: (148/3) والتحرير والتنوير: (103/11).

ثالثا: سورة الحج: هذه السورة من السور المختلف حولها بين قائل بمكيتها وقائل بمدنيتها[1]،ولما كان أحد موضوعات السورة الوعد بالتمكين للنبي –صلى الله عليه وسلم– عقب موضوع إعطاء الإذن بالخوض في الحروب الدفاعية لمن ارتكبوا جرائم عظيمة في حقه –ﷺ– وفي حق المؤمنين سردت السورة الأمم التي كذبت أنبياءها وآذتهم، فبين بهذا السرد للنبي والمؤمنين بأن لا تخافوا من المعارضة الشديدة فإنها قديمة وعادة مستمرة منذ زمن نوح ومن أتى بعده غير أن الغلبة ستكون للحق وأتباعه دائما، وما زالت آثار دمار أعداء الرسل أمام أعينكم، وقد روعي في هذا السرد التسلسل التاريخي كما في سورة الأعراف وهود غير أنه بإيجاز، قال تعالى:﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾[2].

رابعا: سورة الشعراء : وهذه السورة من القرآن المكي[3]، ولكنها ابتدأت بقصة نبي الله موسى عليه السلام ثم إبراهيم عليه السلام ، ثم راعت الترتيب الزمني، فذكرت نوحا ثم هودا ثم صالحا ثم لوطا، ثم شعيبا، وإنما ذكر موسى أولاً؛ لأن حاله يماثل حال سيدنا محمد –ﷺ– ويشبهه من حيث النبوة التشريعية، إذ كل أنبياء بني إسرائيل كانوا على شريعة موسى، ونبينا –صلى الله عليه وسلم– له شريعة أيضا هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يشبه حال من أرسل إليهم موسى وهم أهل مصر حال أهل مكة في سبب الإعراض وما يملأ نفوسهم من التكبر والتعاظم على الرسول المبعوث إليهم بزعمهم أن مثلهم لا يطيع مثله [4] ولعل هذا سبب وصف نبينا ﷺ أبا جهل بفرعون هذه الأمة[5].

وأما ذكر إبراهيم عليه السلام فيقول الشيخ ابن عاشور: "وقدمت هنا قصته على قصة نوح على خلاف المعتاد في ترتيب قصصهم في القرآن لشدة الشبه بين قوم إبراهيم وبين مشركي العرب في عبادة الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر. وفي تمسكهم بضلال آبائهم وفي أن قوم إبراهيم لم يسلط عليهم من عذاب الدنيا مثل ما سلط على قوم نوح وعلى عاد وثمود وقوم لوط وأهل مدين فأشبهوا قريشا في إمهالهم." [6] قلت : ولعل من الحكم

1- فهي من السور المختلطة عند الجمهور، ويرى ابن عطية أنها مكية. ينظر: المحرر الوجيز:(105/4) والذي يظهر من دلالة آياتها أنها مشتركة فعلا حيث إن أحد موضوعاتها تشريعي كالإذن بالقتال وآيات العقاب بالمثل، وهذا لا يكون إلا في المدينة إذ القتال والقصاص كانا قد شرعا بعد الهجرة النبوية، وموضوع الإنذار والتخويف والإيمان بالبعث وأهوال القيامة يغلب على القرآن المكي.

2- من سورة الحج، الآيات42-43-44.

3- نسب ابن عطية القول بمكيتها للجمهور، وهو مروي عن ابن الزبير، وهناك رواية منسوبة لابن عباس ورأي لمقاتل يريان قوله تعالى: چ ۇ ۆ ۆ ۈ چ [الشعراء: 224] إلى آخر السورة نزل بالمدينة. ينظر:المحرر الوجيز: (224/4) والتحرير والتنوير:(89/8)

4- ينظر : التحرير والتنوير:(273:14) .

5- أخرجه الطبراني في الكبير برقم: (8468) و (8469) ، والبيهقي في السنن: (62/9).

6- ينظر: التحرير والتنوير:(137/8).

أيضا أن المشركين العرب يرجع نسبهم إلى إبراهيم عليه السلام ، وهو عدو للشرك والوثنية فكيف يتورط أبناؤه في جريمة الشرك.

خامسا: سورة القمر: هذه السورة من القرآن المكي بالإجماع[1] كذلك، وقد راعت الترتيب الزمني بدءا من نوح ثم هود ثم صالح ثم لوط ثم موسى عليهم الصلاة والسلام، ولكن قصة شعيب عليه السلام لم تُذكر في سورة القمر تحديداً، على عكس بعض الأنبياء الآخرين الذين ذُكرت قصصهم في السورة، وهذا يكون لوجوه منها: محور السورة، فمحورها يرتكز على التذكير بالآيات والنذر وبيان مصير المكذبين بها [2] وإذا بحثنا عن المناسبة بين سورة القمر وبين سورة النجم التي قبلها لوجدنا أن السورتين تحدثتا عن هلاك المكذبين بالآيات والنذر﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ وَثَمُودَ فَمَا أبقى وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴾ [3] مما يعني أن سورة القمر جاءت مفصلة ومقررة لما في سورة النجم من حديث عن هلاك خمسة أقوام: هم قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط[4]، وقد روعي الترتيب في كليهما، وطويت قصة قوم موسى وذكرت في القمر، وطويت قصة قوم شعيب في السورتين، فما الحكمة من ذلك؟.

من المعلوم أن الله –عز وجل– يختار القصص وفقاً للمقصد العام للسورة وسياقها. فالقرآن لا يعيد كل القصص في كل موضع، بل يوزعها لتتناسب مع السياق والمضمون. قصة شعيب عليه السلام وردت في سور أخرى مثل الأعراف وهود والشعراء لما فيها من تفاصيل تناسب المواضيع التي تناقشها تلك السور. ولعل الحكمة في عدم ذكر قوم شعيب هنا قد تكون في أن سورة القمر ركزت على التحذير الشديد والإنذار المتكرر، إذ تنتهي كل قصة بعبارة: "فكيف كان عذابي ونذر". وهذا قد يكون مناسباً لذكر قصص محددة فقط تتوافق مع هذا النمط، وخاصة أن شعيبا كان يحذر قومه مما حل بهذه الأمم الخمسة المذكورة هنا حيث قال: :﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [5] والله أعلم.

ويظهر من تأمل السور التي تناولها هذا المبحث أن القرآن الكريم راعى الترتيب التاريخي للأنبياء مراعاة دقيقة، تتسق مع السياق العام ومحور السورة، وأن هذا الترتيب ليس مقصورًا على مواضع القصص المطوّلة، بل حاضر أيضًا في مواضع مختصرة وعابرة، كما في قوله تعالى في سورة الأحزاب:﴿وَإِذْ أَخَذْنَا

1- حكى ذلك ابن عطية واختلفوا في آية واحدة. ينظر: المحرر الوجيز: (211/5) والتحرير والتنوير:(165/13)

2- التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم :(512/7).

3- من سورة النجم، الآيات:50 إلى 56.

4- ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم :(512/7)، والمراد بالمؤتفكة: قرية قوم لوط بإجماع من المفسرين، ومعنى المؤتفكة: المنقلبة؛ لأنها أفكت فائتفكت، ومنه الإفك، لأنه قلب الحق كذبا .المحرر الوجيز: (209/5)

5- من سورة هود، الآية 89.

مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ...﴾ [1]،إذ جاء ترتيب الأسماء متسقًا مع التسلسل التاريخي المعروف.

ومثل ذلك ما ورد على لسان مؤمن آل فرعون في سورة غافر:﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ، مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ﴾[2] ثم قال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾[3] فهذا أيضًا ترتيب زمني دقيق يُثبت أن القرآن حين يذكر الأنبياء على سبيل العظة أو التذكير، لا يُسقط البعد التاريخي من اعتباره في بعض المواضع، بل يوظفه بعناية دون أن يكون أسيرًا له.

غير أن القرآن – في مواضع أخرى – قد يورد القصص بغير ترتيب زمني، لكنه لا يغفل عن ذلك، بل ينبّه إليه بصيغة ظاهرة، كما في سورة الذاريات حيث جاء ذكر إبراهيم، ثم لوط، ثم موسى، ثم عاد، ثم ثمود، ثم قال:﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾.[4]

وهذا الترتيب يختلف عن التسلسل الزمني المعهود في القرآن لسرد الأمم المكذبة. ولا شك أن هذا العدول مقصود لحكمة بلاغية أو تربوية، تستدعي الوقوف عندها، وتأمل السياق الذي أُدرجت فيه هذه القصص.

ومن هنا ينطلق المبحث الثاني ليُعالج المواضع التي لم يُراع فيها الترتيب الزمني للأنبياء، محاولًا الكشف عن الأسباب البلاغية والمقاصدية التي اقتضت هذا التقديم والتأخير في السياق القرآني.

المبحث الثاني: السور التي لم تراعِ الترتيب الزمني:

بعض السور سردت قصص الأنبياء ولكنها لم تراع الترتيب الزمني كسورة النساء وسورة آل عمران وسورة يونس وسورة الحجر وسورة الإسراء وسورة مريم وسورة الأنبياء وسورة الفرقان وسورة النمل وسورة العنكبوت وسورة الصافات وسورة ص وسورة الذاريات، وسأكتفي بالحديث – في هذا المبحث– بذكر سورتين دون الخوض في باقي السور لأن ذلك يطيل البحث بشكل يتجاوز نطاقه المحدد.

أولا: سورة يونس: وهي من السور المكية[5] أيضا عند الجمهور، ويعرض القرآن فيها ثلاث قصص

1- من سورة الأحزاب، الآية 7.

2- من سورة غافر، الآيتان 30-31.

3- من سورة غافر، من الآية34.

4- من سورة الذاريات، من الآية 46.

5- مكية السورة مروي عن ابن عباس في الأصح عنه، بينما يرى مقاتل بن سليمان أن آيتين من سورة يونس قد نزلتا في المدينة وليس في مكة ، وهما:

(فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك -إلى قوله – حتى يروا العذاب الأليم) إذ يرى أن هذه الآية تدل على وجود أهل الكتاب في المدينة، مما يشير إلى أنها نزلت بعد الهجرة، بينما يرى الكلبي أن أغلب السورة نزل بمكة ما عدا آية واحدة نزلت في يهود المدينة، وهي قوله (ومنهم من يؤمن به-إلى-أعلم بالمفسدين) ينظر: المحرر الوجيز :3:102،والتفسير الكبير:183/17، والتحرير والتنوير:77/6 .

قُدِّمت قصة نوح فقال تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾[1] ثم أجمل الحديث عن باقي الرسل الذين جاءوا بعد نوح وطوى ذكرهم، وهم هود وصالح وشعيب –عليهم السلام–[2] فقال:﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ ﴾ ثم عقب بالحديث عن قصة موسى وهارون مع فرعون من الآية 74 إلى أن ذكر مآل فرعون ، ثم ذكر قصة قوم يونس –عليه السلام– الذي كانت بعثته في أول القرن الثامن قبل المسيح"[3] مما يعني أن السورة راعت الترتيب الزمني –كما رأيت– .

ولكن قد نتساءل: لم اقتصر القرآن في هذه السورة على ذكر هؤلاء دون غيرهم؟ أو ما الحكمة في سرد هؤلاء الأنبياء؟ ولماذا تم سرد قصة يونس –عليه السلام– في هذا الموضع دون غيره من الأنبياء؟

ولم سميت السورة بهذا الاسم؟ يقول بعض المفسرين في تعليل انفراد هذه السورة بهذا الاسم: سميت بها لانفرادها بذكر خصوصية لقوم يونس حيث إنهم آمنوا بعد وعيد رسولهم لهم بنزول العذاب ولكن الله عفا عنهم حين آمنوا قال تعالى ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ لكن الشيخ ابن عاشور يرى أن قصة يونس –عليه السلام– قد ذكرت أيضا في الصافات بأوسع مما في هذه السورة، ويرى أن سبب التسمية ليس بالضرورة مرتبطا بقصة يونس، بل ربما يكون السبب هو تمييز هذه السورة عن السور التي تبدأ بـ(ألر)، ولذلك أضيفت كل واحدة منها إلى نبي أو قوم نبي عوضا عن أن يقال: (ألر) الأولى و(ألر) الثانية، معللا ذلك بأن السور التي تبدأ بحروف مقطعة كانت تُعرف بين المسلمين بأولى الكلمات فيها، مثل (آل حم) أو (آل الر)[4].

أما محور سورة يونس الأساسي فيدور حول الرد على شبهات الكفار في إنكار النبوة مع الجواب عنها، وكانت إحدى شبهاتهم الأساسية التي طرحها الكفار، هي تأخر العذاب والنصر، وتوضح أن هذا التأخير ليس دليلاً على كذب النبوة، بل هو من حكمة الله، وساقت السورة أمثلة وهي واقعة نوح وواقعة موسى – عليهما السلام– مع فرعون، ثم قصة يونس [5] فكأن الله يقول لمعارضي النبي –صلى الله عليه وسلم– من خلال هذه الأمثلة الثلاثة إننا نعامل المنكرين للنبوة بثلاثة أساليب:

الأول: الدمار الشامل لأعداء الرسل كما حصل مع قوم نوح حيث قال تعالى:﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا

1– من سورة يونس، من الآية71.

2– ينظر: التفسير الكبير:189/17، والتحرير والتنوير:6:244.

3– ينظر: التحرير والتنوير:290/6. قال ابن عاشور: قوم يونس: هم أهل قرية نَيْنَوى من بلاد العراق، وهم خليط من الأشوريين واليهود الذين كانوا في أسر ملوك بابل بعد بختنصر.

4– ينظر: التحرير والتنوير:6:244.

5– ينظر: التفسير الكبير:304/17.

بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾.[1]

الثاني: إنجاء بعض القوم وإهلاك الباقين كما حدث في قصة موسى إذ آمن به أغلب بني إسرائيل وأهلك فرعون وجنوده.

الثالث: الإنجاء لجميع القوم الذين كانوا معارضين ثم تابوا كما حدث مع قوم يونس.

فينصح الله المعارضين من الكفار ببيان هذه الأمثلة الثلاثة، ويقول لهم: لماذا تُقدمون على الهلاك والدمار الشامل كقوم نوح وفرعون وجنوده ؟ لماذا لا تكونون كقوم يونس الذين حين أتاهم العذاب تابوا كلهم توبة نصوحا فتفضل الله عليهم بقبول توبتهم ونجاهم من العذاب؟

وفي هذه الأمثلة الثلاثة تعريض للكفار بذكر ما حل بالأمم المماثلة أحوالها لأحوالهم ... فإن نوحا – عليه السلام– مع قومه مثل لحال محمد–صلى الله عليه وسلم– مع المشركين من قومه في ابتداء أمره وتطوره... وقد كان حال أهل مكة كحال قوم يونس إذ بادروا إلى الإيمان بمجرد دخول جيش الفتح مكة وقبل أن يقعوا في الأسر أو العذاب بالقتل [2]وهكذا كانت المشابهة بين النبي –صلى عليه وسلم– وبين يونس.

ومن يمعن النظر جيدا في هذه القصص وغيرها في القرآن الكريم، ويقارنها بحياة النبي– صلى الله عليه وسلم– يدرك أن القصص لم تذكر للتسلية، وإنما هي أحداث تضمن نبوءات وبشارات [3]، ولعل في تسمية السورة بهذا الاسم له مغزى يتعلق بموضوعها. والله أعلم.

ثانيا: سورة الحجر : التي تعد من القرآن المكي وقد سردت لنا جملة من الأحداث التاريخية، وقد جاء ترتيب القصص في السورة على النحو التالي: قصة آدم ثم إبراهيم ثم لوط ثم شعيب ثم صالح، ولكن إذا نظرنا إلى الترتيب الزمني للأحداث، نجد أن الترتيب التاريخي الصحيح هو :صالح ثم لوط ثم شعيب ، وهنا نتساءل لماذا غير الله تعالى الترتيب الزمني في هذه السورة؟

قبل الإجابة على هذا السؤال، ينبغي أولاً فهم المحور الأساسي الذي تقوم عليه سورة الحجر، فإذا استوعبنا ذلك، ستتضح لنا الحكمة من ترتيب القصص في هذه السورة.

المحور الرئيس للسورة هو تسليط الضوء على المصير المخيف الذي ينتظر المكذبين. وقد تناولت

1– من سورة يونس، من الآية 73.

2– ينظر: التحرير والتنوير:234/6 و291.

3– يقول الشيخ ابن عاشور: "وفي الآية إيماء إلى أن أهل مكة يعاملهم الله معاملة قوم يونس إذ آمنوا عند رؤية العذاب ، وذلك حالهم عندما تسامعوا بقدوم جيش غزوة الفتح الذي لا قبل لهم به عِدّة وعُدّة فيكاد يحل بهم عذاب الاستئصال لولا أنهم عجّلوا بالإيمان يوم الفتح فقال لهم النبي –صلى الله عليه وسلم أنتم الطلقاء". التحرير والتنوير:289/6.

السورة هذا المحور من زوايا متعددة، منها بيان سنن الله في التعامل مع المكذبين. [1]

والظاهر أن محور سورة الحجر هو الوحي وهو كلام الله وقوته الخارقة إذ لا يمكن الوقوف أمامه، وأن الافتراء على الله أمر خطير يستوجب العقاب، مما يثبت صدق القرآن وكونه نزل مصحوبًا بالبراهين، وتبرز السورة عظمة القرآن الذي لا مثيل له، حتى إن المعارضين يتمنون امتلاك مثله، لكن مصالحهم تحول دون قبوله، مما يعرضهم للحرمان والعذاب.

ويؤكد الله أنه تولى حفظ هذا الوحي ليبقى خالدًا، بينما يضر الرافضون أنفسهم فقط. ورغم استهزاء الناس بالأنبياء ووحيهم، فإن الله يدافع عن رسالته ويخصها بخصائص تؤدي إلى قبولها وانتشارها، ويرفع المصدقين بها. ثم بدأت السورة بقصة آدم –عليه السلام– وهو أول إنسان تلقى الوحي الإلهي، حيث سخَّر الله الملائكة لإنجاز دعوته، مما يُظهر أن ظاهرة الوحي وحمايته ليست أمرًا جديدًا بل مستمرة منذ البداية، وهذا يُوجه رسالة للمكذبين من قريش وأمثالهم، بأنهم يسيرون على خطى الشيطان وذريته، وهم أعداء لآدم وأتباعه. لكن الله أخبرهم أن أعداء الوحي لن يعيقوا المؤمنين في تقدمهم نحو الله، وأنهم سيفوزون بالجنة.

ثم تناولت السورة قصصًا تهدف إلى التذكير بعاقبة المكذبين، مثل قصة قوم لوط، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الحجر : أي قوم ثمود. [2] فابتدأت بقصة إبراهيم عليه السلام، التي غالبًا ما تقترن مع قصة لوط، لبيان أن لوطا كان تابعًا لإبراهيم–عليهما السلام–. وهذا توجيه مباشر للمشركين من العرب، وخاصة المكيين، الذين يعدون أنفسهم من سلالة إبراهيم، الذي كان لوط من أقاربه. فالله يُذكرهم بأن الوحي قد نزل من قبل على إبراهيم ولوط، فكيف تشككون في نزوله على محمد –صلى الله عليه وسلم– ويُحذرهم من عواقب التكذيب الذي يؤدي إلى العقوبة الإلهية كما عاقب هاته الشعوب نتيجة لتكذيب ما أوحى الله إلى أنبيائها.

وفي ختام قصة دمار مدينة قوم لوط –عليه السلام–، قال تعالى :(وإنها لبسبيل مقيم) أي طريق واضح لايندرس ولا يخفى، يشير الله تعالى إلى أن هذه المدينة أو المدن دُمِّرت بسبب كفر أهلها تقع بالقرب من طريق تجاري معروف عند العرب والمكيين خصوصا، وتمر به قوافلهم[3]، ورغم أنهم يشاهدون آثار هذه المدن ويعرفون قصتها، فإنهم لا يتعظون بمصيرها، ومن المعروف أن منطقة قوم لوط تقع على الطريق الممتد بين الجزيرة العربية والشام، مما يجعل رؤيتها متاحة للمسافرين. [4]

1– ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم :(95/4).

2– يراجع التحرير والتنوير مع التصرف :56/14–57.

3–أكد القرآن الكريم هذا المعنى في مواضع أخرى تشير إلى معرفة أهل مكة بمنطقة قوم لوط، منها قوله تعالى: (ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها) الفرقان، الآية 40، وقوله تعالى:(وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون) الصافات، 138.

4– ينظر: التحرير والتنوير:70/14، والتفسير الوسيط:50/3.

ثم تناولت السورة قصة أصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب عليه السلام، وأشارت إلى انتقام الله منهم بسبب تكذيبهم، كما أوضحت أن ديارهم تقع على طريق قوافل المكيين، مما يجعل آثارهم شاهدة أمام أعينهم. ثم ختمت السورة بقصة أصحاب الحجر، قوم صالح عليه السلام، الذين عاشوا في منطقة الحجر، المعروفة اليوم بمدائن صالح الواقعة على الطريق بين خيبر وتبوك.[1]

وقد بينت السورة أن هذه الشعوب كانت قريبة من طرق القوافل التي يسلكها أهل مكة، مما يعني أنهم يعرفون تمامًا قصص هؤلاء الأقوام، ويعلمون أن المعارضين من تلك الشعوب رفضوا الوحي الذي أنزل على أنبيائهم، فمهلهم الله ثم أهلكهم بعد ذلك. فكأن الله يُحذر أهل مكة من مغبة إنكارهم للوحي الذي أنزل على محمد –صلى الله عليه وسلم– ويُنبئهم ألا يغتروا بالمهلة التي يمنحهم الله إياها، لأن مصيرهم لن يختلف عن مصير الأمم السابقة إذا استمروا في تكذيبهم وعنادهم.

ومن الملاحظ– عند النظر في أطلس القصص القرآني– أن السورة راعت البعد الجغرافي بين مكة ومواقع تلك الشعوب، سردت أولا قصة آدم ثم بدأت بقوم لوط الأبعد عن مكة، ثم انتقلت إلى قوم شعيب الأقرب منهم، واختتمت بقصة قوم صالح وهم أصحاب الحجر الذين كانوا يعيشون في الجزيرة العربية في منطقة تبوك الأقرب إلى مكة، وهذا التدرج المكاني يحمل رسالة واضحة للمكيين بأن آثار تلك الأقوام وشواهد هلاكهم قريبة منهم، فلا عذر لهم في تجاهلها فإن التكذيب ينذرهم بمصير مماثل.

الخاتمة

أولًا: النتائج:

توصل البحث، في ضوء الدراسة والتحليل، إلى جملة من النتائج، أبرزها:

1. أن القصص القرآني ليس سردًا تاريخيًا محضًا، وإنما هو عرض تربوي وبلاغي يخدم غايات الهداية والاعتبار، ويتناغم مع السياق العام للسورة ومحورها.
2. أن الترتيب الزمني للأنبياء ورد في عدد من السور بوضوح، مثل: الأعراف، هود، الشعراء، القمر، وراعى فيها القرآن التسلسل التاريخي للأنبياء وأقوامهم بما يخدم مقصد السورة.
3. أن عدم التزام الترتيب الزمني في بعض السور ليس عيبًا، بل هو اختيار بلاغي مقصود، اقتضته طبيعة المقام، كما في سور: الحجر، يونس، النساء، مريم، الأنبياء، حيث اقتضى السياق تقديم بعض الأنبياء أو تأخيرهم لما ينسجم مع محور الخطاب.
4. أن الشبهات التي ربطت بين غياب الترتيب الزمني و"الجهل بالتاريخ"، شبهات باطلة تنطلق من قراءة حرفية وسطحية للنص القرآني، دون اعتبار لطبيعته البيانية .

1- ينظر: التحرير والتنوير:73/14، والأساس في التفسير: 6/ 2893.

5. أن ما ورد من إشارات إلى الترتيب الزمني في بعض التفاسير (كابن عاشور وسيد قطب وسعيد حوى)، يفتح أفقًا للتوسع في هذا الباب، لكنه لم يُستثمر بعدُ في دراسة منهجية متكاملة.

ثانيًا: التوصيات:

بناءً على ما سبق، يوصي البحث بما يلي:

1. العناية بالدراسات التي تربط بين السياق الموضوعي للسورة والترتيب القصصي فيها، بما يكشف عن وحدة البناء القرآني ودقة النظم.

2. توسيع دائرة البحث في الترتيب الزمني للأنبياء في القرآن الكريم، وجمع الآيات المتعلقة بكل نبي على حدة، وتحليلها زمنيًا ومقاصديًا.

3. دعوة الباحثين إلى استكمال ما بدأته هذه الدراسة، ببحث السور الأخرى التي لم تتناولها، ودراسة الموازنة بين القصص المتكررة في أكثر من سورة من حيث الترتيب والتقديم والتأخير.

4. تعزيز الردود العلمية على الشبهات من منطلق البيان القرآني والمقاصد البلاغية، بدل الاكتفاء بردود دفاعية جزئية.

5. إدماج هذا الجانب من الدراسات في مناهج تدريس التفسير وعلوم القرآن، لتقوية ملكة الربط بين القصة القرآنية وسياقها العام.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
2. الأساس في التفسير، لسعيد حوى (دار السلام- القاهرة-ط6-1424هـ).
3. البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي(دار هجر -ط1-1997 م).
4. تاريخ أرض القرآن، لسليمان الندوي، ترجمه: د. محمد أكرم الندوي (دار القلم- دمشق-ط1-2016م).
5. التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، لمحمد الطاهر بن عاشور التونسي (الدار التونسية للنشر – تونس- 1984).
6. تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تح: محمد حسين شمس الدين (دار الكتب العلمية- منشورات محمد علي بيضون – بيروت- ط1 - 1419 هـ)
7. التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ، إعداد نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن، إشراف: أ.د مصطفى مسلم (جامعة الشارقة-ط1-2010م).
8. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، للدكتور محمد سيد طنطاوي(نهضة مصر – القاهرة-ط1).

9. تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، لمحمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري، إشراف ومراجعة: د. هاشم محمد علي بن حسين مهدي(دار طوق النجاة- بيروت - لبنان-ط1- 1421 هـ - 2001 م).
10. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لمحمد بن جرير الطبري، تح: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي(دار هجر -ط1-2001 م).
11. سفر التكوين.
12. سفر الخروج.
13. في ظلال القرآن ، لسيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (دار الشروق - بيروت- القاهرة- ط 17 - 1412 هـ).
14. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد(دار الكتب العلمية - بيروت- ط1 - 1422 هـ).
15. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لإبراهيم بن عمر، البقاعي (دار الكتاب الإسلامي، القاهرة).